

سيمولوجيا الألوان وحساسية التعبير الشعري عند صلاح عبد الصبور

د. حنان بومالي - أستاذ محاضر "ب"

قسم اللغة والأدب العربي

معهد الآداب واللغات المركز الجامعي لميلة (الجزائر)

الملخص:

يلجأ الشاعر العربي المعاصر إلى مجموعة من الوسائل الفنية لتشكيل صورته الشعرية على نحو يكسيها قيمة إيحائية تعبيرية أغنى، تجعلها أقدر على الإيحاء بتلك العوالم النفسية الرحبية التي يحاول الشاعر أن يعبر عنها في قصيدته، ومن هذه الوسائل التي يلجأ إليها الشاعر المعاصر لتشكيل صورته "اللون" الذي يحقق للعمل الشعري تكثيفا لغويا؛ ودلالات متعددة تمكّن من التعبير عن عالمي الشاعر الداخلي والخارجي. ولعل هذه الدراسة أن تكشف دلالة الألوان في شعر صلاح عبد الصبور، وتُظهر البعد الجمالي الذي تحققه من خلال مشاركة المتلقي الوجدانية وهو يتلقى القصيدة من جهة، وفي تحديد القراءة العميقة للقصيدة التي تحصل عن طريق المعنى الإيحائي الذي يضيفه اللون عليها من جهة أخرى .

Abstract:

Contemporary Arab poet to have a set of technical means for shaping **his image poetry** as earned value revelatory expressive singing, making them better able to suggest that the wide mental realms which the poet tries to that expressed in his poem, the means used by the contemporary poet to form his "**colour**", which is a poetic work **intensive language** and multiple semantics to express the poet's inner and outer world. Perhaps this study should reveal the significance of colors in hair **Salah Abdel Sabour**, the aesthetic dimension appear through the participation of the recipient is receiving emotional poem, on the one hand, and reading of the poem that get through on the suggestive casts with the other hand.

Résumé :

Les ressources de poète de l'arabe les juicers au groupe des méthodes artistiques pour la formation l'ont dépeint le treillis dessus vers des gains ses riches expressifs de **valeur suggestive**, fait lui votre la suggestion a les moyens dessus en colline les scientifiques mentaux larges que le poète essaye cela dans les exemples au sujet de elle en sa poésie, et du ce les méthodes qui recourt à elle le poète contemporain pour la formation l'ont dépeint « **la couleur** » qui le travail velu réalise pour des **condensations linguistiques**. Peut-être cette étude à l'évidence des couleurs dans les poètes de **SalahAbdel Sabour** découvre le patient slave, et la distance esthétique apparaît quant à qui sa réalisation par la participation sentimentale le destinataire et lui reçoit la poésie, à spécifications profondes proportionnées la lecture pour la poésie que la route nous rassemble au sujet des éclats suggestifs qui lui donne la couleur sur elle de l'autre côté.

مقدمة:

تتميز القصيدة العربية المعاصرة بمجموعة من السمات والخصائص العامة، التي اكتسب بعضها من طبيعة الرؤية الشعرية الحديثة، وبعضها الآخر من طبيعة التقنيات المستخدمة في بنائها وطريقة توظيف الشاعر لها، الأمر الذي جعلها تهفو إلى أن تكون كيانا فنيا متفردا، لا تريد أن تحصر نفسها في مجموعة الأغراض المتناهية كالعزل والمدح والفخر والرثاء وغيرها من الأغراض التي تمثل قيودا صارما على قدرات الشاعر الإبداعية، ورغبته في الانطلاق إلى آفاق التفرد والابتكار.

ثم إن الشاعر المعاصر يهدف إلى أن تكون قصيدته إبداعا بكرا، ورؤية شديدة التفرد والخصوصية للوجود، فهو شديد الحرص على أن ينظر إلى العالم من زاوية لم يسبقه إليها أحد من قبل، وأن يعالج هذه الرؤية الخاصة بطريقة فنية متفردة تفتح أفق توقع المتلقي على جوانب وأبعاد خفية لم يكن ليدركها لو لم يفتح الشاعر عينيه عليها، وتجعله يحس أن هذا العالم الغريب الذي تقدمه القصيدة إنما هو إبداع الشاعر وابتكاره.¹

أولا - حضور اللون في القصيدة العربية المعاصرة :

يعد اللون بنية أساسية مهمة في تشكيل القصيدة الشعرية، وركيزة هامة تقوم عليها الصورة الشعرية بكل جوانبها، من الشكل إلى المضمون، فاللون يحمل قدرا كبيرا من العناصر الجمالية، وإضاءات دالة تعطي أبعادا فنية في العمل الأدبي على وجه الخصوص، بل إن المفردة اللونية تكاد تخلق لغة خاصة في النص الشعري لما لها من مدلولات وأسرار.

كما أن الألوان من أغنى الرموز اللغوية التي توسع مدى الرؤيا في الصورة الشعرية وتساعد على تشكيل أطرها المختلفة، لما تحمل من طاقات إيجابية وقوى دلالية وبما تحدثه من إشارات حسية وانفعالات نفسية في المتلقي،² خاصة وأن النفس تبتهج بما كان من الأجسام له اللون الأحمر والأخضر والأصفر، إما بسيطا أو مركبا بعضها من بعض، فنظر هذه يوجب راحة النفس، وسرور العقل، ونشاط الذهن، وانبساط الروح مع توفر القوى.

وقد قيل إن للون جوانبه السيكلوجية، فمن يختار لونا ما، فإنما يحكمه موقف ما، ومن هنا ذهب البعض إلى القول بأن كل لغة من لغات العالم مجموعة من الألوان فمنهم من يحب اللون الأخضر، لارتباطه بفصل الربيع، ومنهم من يحب اللون الأزرق لارتباطه بزرق السماء أو البحر في يوم اقترن بيوم طيب... وهكذا³، مع أن هذه الدلالات تتغير بتغير الظروف والأزمنة والمؤثرات النفسية والمقاييس الذوقية لكل فرد.

ولهذا كان للألوان دورها في بناء القصيدة العربية المعاصرة وانسجاماتها الجميلة في تكوينها، إذ تتوسع القصيدة وتمتد إلى ما بعد محيطات الألوان وحدودها، بل إن النص الشعري العربي المعاصر تأثت بالألوان وفن الرسم حيث «تشهد القصيدة الحديثة احتقالاتا بجماليات اللون في كل اتجاه، وعبر كل المستويات»⁴، وأصبح اللون فيها لغة رمزية له دلالاته المتعددة: الفكرية والسياسية والدينية... وهو بهذا قيمة بارزة لم يعد للشاعر المعاصر بد من توظيفها والالتكاء عليها.

فقد تجاوزت القصيدة الحديثة استخدام اللون على «مستوى الوصف أو على مستوى التشبيه، وحتى على مستوى العلاقات الرمزية من خلال توظيف الشعراء لتراسل الحواس، وتبادل مجالات الإدراك، كما تجلى هذا في المدرسة الرمزية التي حاولت أن توظف الألوان توظيفا جديدا بحيث يدخل اللون طرفا ضديا للشئ نفسه»⁵

ويأتي توظيف اللون على هذه الشاكلة «مظهرا من مظاهر الاحتجاج على النمطية السائدة في توظيف اللون وإخضاعه للثابت تصريحا أو تلميحا أو ترميزا، بل هو مفتوح لترويض دوال اللون وتأويلها.»⁶ وبهذا استطاع الشعراء المعاصرون أن يغيروا في العلاقة بين الدال والمدلول، وذلك بتوسيعهم للدوائر الاستبدالية التي تتخطى المعجم المألوف إلى معجم جديد يخدم الحالة النفسية والشعورية للشاعر.

والحقيقة أن حضور اللون في القصيدة العربية مرده إلى ظاهرة تداخل الفنون بعضها مع بعض، ولقد أسس أرسطو Aristo لنظرية المحاكاة وجعلها «أساسا غريزيا لكافة فنون التعبير والتصوير، وبهذا جمع بين الشعر والحكي والدراما والموسيقى والرسم والنحت في إطار واحد، من حيث المرتكز النفسي والاستعداد الفطري، ثم يأتي الاختلاف في وسيلة التعبير.» ويكاد يكون هناك شبه اتفاق بين علماء الجمال ودارسي الفنون على أن ثمة علاقة بين الفنون وبعضها، وأن هذه العلاقة قديمة قدم الأنواع الفنية نفسها، كما يقول أرسطو Aristo إن «الشاعر محاك كالمصور وغيره من أهل الفن.»⁷

في هذا الإطار انفتحت العلاقة بين فن الشعر وفن الرسم على أكثر من وشيجة عميقة وجوهرية بينهما، على المستويات التقنية والشكلية ولعبة المعنى والتخييل والتأمل ورحابة الفضاء، إذ «إن شبكة الصور المعروفة في فن الشعر ليست أكثر من لوحات مرسومة بواسطة الكلمات بدلا من الخطوط والألوان والكتل، مع التفريق بين الصفة الإطلاقيه التي تتمتع بها الصورة المرسومة بالكلمات، والصفة التجسيدية المحددة التي تطرحها اللوحة المرسومة بالأشكال والألوان وأدوات الرسم الأخرى.»⁸

ويعد اللون بتمظهراته المختلفة وقيمه المتنوعة أحد أهم آليات فن الرسم، أفاد منه الشعر ولاسيما الحديث منه، فائدة تجاوزت حدود الوصف «منتقلة على تفجير طاقات البعد السيميائي فيها، وتوظيفها على نحو بالغ التميز في التشكيل الشعري، فاللون بطبيعته شعر صامت نظمته بلاغة الطبيعة وبيانها، فهو كلامها ولغتها والمعبر عن نفسياتها، فضلا عن كونه المعبر البصري عن الشكل، لأنه ليس بوسعنا مطلقا أن ندرك الشكل إدراكا تاما إلا بحضور اللون، وذلك لأن اللون انعكاس لأشعة الضوء على شكل الشيء الذي ندركه، ويعد اللون الجانب الظاهري للشكل، إذ لا يمكن مطلقا رصد أية ظاهرة فنية على أساس محتواها من دون تفهم طبيعة شكلها.»⁹

لذا فإن توظيف اللون في الشعر بحاجة إلى شاعر فنان يعي خطورة هذا التوظيف في حقل الشعر، ويدرك كيف يستغل أمثل الطاقات اللونية في اللون لفاعلها بمنطقة شعرية، يعينها في لحظة الحاجة الفنية العليا لهذه المفاعلة ليكون الناتج في أعلى مراحل أداء وتشكيلا ومعنى وحضورا، ولعل صلاح عبد الصبور أحد أهم رواد الشعر العربي المعاصر من أغنى شعراء هذه الفترة لأنه يمثل أكثر من قمة فنية لأكثر من اتجاه، فهو أغنى ليس لكثرة عطائه وغزارته، بل لاهتمامه بشعره ونزعه التأملية التي قادتته إلى تشغيل عنصر اللون في قصائده وتوظيف طاقاته الإيحائية.

ثانيا- مقارنة إجرائية لشعر صلاح عبد الصبور:

يحيل فضاء اللون وتجلياته في المجال الحيوي الشعري على مرجعه التشكيلي ويستلهم إشارة التدليل الجمالي فيه من المخزون المرجعي أولا، ثم ما يلبث أن ينفث على مجاله اللساني الجديد، لتأخذ الدلالة السيميائية وضعها المختلف عن حدود المرجعية الدلالية للون، إذ «إن كل المعطيات الموصوفة في النموذج اللساني يمكن أن تتحول إلى كوة نطل من خلالها على الأنساق غير اللسانية، فالقوانين التي تتحكم في اشتغال الأنساق الأخرى مبنية وفق قوانين اللسان.»¹⁰

وعلى هذا الأساس وانطلاقاً من هذه الرؤية «ما عادت القصيدة اليوم، تصنع نهرها الخاص من لغة نضاحة بالشجن أو البهجة أو التأمل، إنها مفتوحة الآن على أفق مزحوم بالأجناس والفنون وأنماط التعبير.»¹¹ حتمت عليها تطوير أسلوبيتها التعبيرية وإنضاج رؤيتها الجمالية، فضلاً على تعميق خطابها وشحنه بقيم تعبيرية جديدة.

ويعمن اللون إمعاناً سافراً في التدخل والتمثل والتأثير والتغيير والمشاركة حتى يبلغ قلب الجوهر الشعري، مسهماً في تشكيل لغته وصوره وبناء أنموذجه، فضلاً عن امتزاجه باللغة الشعرية واشتغاله على توجيه حيويتها بطاقتها السيميائية المكونة في بؤرة اللغة.

ثم إن استنطاق اللحظة الشعرية التي ينجز فيها اللون سيميائية داخل كينونة اللغة، هو ما يقودنا إلى إدراك القوة الشعرية التي يتمخض عنها اللون في صياغة التشكيل، ومن ثم تلمس المستوى الذي ينتقل فيه من دلالة الصفة بطابعها البلاغي المجرد إلى فاعلية العلامة بطابعه السيميائي المركب،¹² والتي تسهم إسهاماً فعالاً في تشكيل لعبة المعنى في المجال الشعري بحيث لا يمكن إنتاج معنى الحياة في المنجز الشعري بنزعه الإنسانية من دونها.

والمتلقي لأشعار صلاح عبد الصبور يجد هذه العلامة اللونية ماثلة في قصائده وبأشكال مختلفة تتحكم فيها رؤيته وحساسيته الشعرية من جهة، وجمالية المنجز الشعري من جهة أخرى، ولعل أهم العلامات اللونية الحاضرة في قصائده هي:

1- اللون الأسود:

يأتي اللون الأسود في الشعر العربي المعاصر من حيث الكثافة في مرتبة متقدمة، جعلته يغطي مساحة واسعة في قصائد الشعراء، ويعود ذلك إلى عوامل متعددة قد تكون «الحالة السوداوية التي عاشها الإنسان العربي، في سلسلة متتالية من النكبات والهزائم والموت والحداد عاملاً بارزاً لانتقال حركة الواقع المسود إلى أحاسيس الشعراء وأقوالهم، كما قد دل اللون الأسود على دلالات أكثر وأعمق مما هو موروث عند الناس.»¹³ ولقد تغير مدلول هذا اللون من شاعر إلى آخر ومن حالة إلى أخرى، لأن اللون لا يستقر على حالة واحدة، وإنما يتغير وفق تغير الظروف الزمكانية. وقد استخدم صلاح عبد الصبور هذا اللون في قصائده ووظفه بشكل فاعل، كما في قصيدته "رحلة في الليل" التي يتفاعل فيها مع اللون الأسود بوصفه لونا مركزياً وجوهرياً، ضمن إطار الفضاء الجمالي للون الذي يحيل على فضاء إنساني اغترابي، يقول:

الليل يا صديقتي ينفذني بلا ضمير

ويطلق الظنون في فراشي الصغير

ويثقل الفؤاد بالسواد

ورحلة الضياع في بحر الحداد

فحين يقبل المساء، يفقر الطريق، والظلام محنة الغريب.¹⁴

يحمل هذا المقطع عنوان "بحر الحداد" الذي يكشف عن الحالة النفسية السوداوية المغترية للشاعر، وهي تخضع للظرف الزمني "الليل" المرتبط بحالة الضياع في بحر الحداد، والأمر المهم في هذا المقطع هو تلبث اللون الأسود الذي يثقل كاهل الشاعر وفؤاده من جهة، ويفاجئ القارئ ويجعله مشدوداً إلى عالم الداخل من جهة أخرى.

ولكن هذا السواد ما يلبث أن يحمل دلالة أخرى في القصيدة نفسها، حين يقرن الشاعر بين العيون واللون الأسود، على النحو الذي ينشئ صراعاً درامياً في الصورة اللونية بين واقع اللون الجمالي في العينين، وإسهامه في

التذكير بالجراح التي يعانيتها الشاعر ورغبته في التغيير وتبديل الاغتراب والسأم بالأمل، الذي يجعل الاستمتاع بجمالية اللون في العينين مقترنا بالمأساة ومرهونا بالتجربة المرة التي يعانيتها الشاعر، حين يقول:

لله ما أحلى عيون العاشقين حين يبسمون

ويقسمون

بحرمة الشجون

وبالليالي المثقلات، وانتفاضة الحنين

وبالسواد في العيون

العهد لن يهون.¹⁵

يذهب عبد الصبور بعد هذا إلى القيمة السلبية للون الأسود، ليضع صورته اللونية استنادا إلى رؤيا اللون الأسود المرتبطة عادة بالموت:

هجم التتار

ورموا مدينتنا العريقة بالدمار

رجعت كتائبنا ممزقة، وقد حمى النهار الراية السوداء، والجرحى، وقافلة موات

والطبله الجوفاء، والخطو الذليل بلا التفات.¹⁶

إن الصورة الاستعمارية التي أنسنت الراية السوداء وجعلت بموجبه حامية للنهار كما يفعل الجنود الذين يزودون عن حمى الوطن (وقد حمى النهار الراية السوداء)، إنما تحيل على السوداوية والمأساوية والحزن والموت الذي لحق المدينة جراء هجوم التتار عليها، كما تتناسب صوريا مع الجزء الموالي لها، والذي يشيع فيه السواد الرمزي المقترن بالدوال السلبية المهيمنة على الصورة (قافلة موات، الطبله الجوفاء، الخطو الذليل...).

والحقيقة أن اللون الأسود في المنجز الشعري لعبد الصبور مرتبط غالبا بالحداد والحزن والموت، ولذلك يدل في أغلب قصائده على الألم وعلى الخوف من المجهول وهو الأمر الذي جعله يصبغ كل شيء بلون السواد حتى الجن في العالم الغيبي، وإن كان لا يراهم، حين يقول:

أطلال... أطلال

والجن فيها سود

لهم فحيح السود

يثييون في الأسحار

وثبا على صدري.¹⁷

لم يعد للأمل حضور في واقع الشاعر، فقد اختفت الأسماء واستبان الغيب بسواده في أطلال الشاعر، ليتغلغل اليأس والجمود في صدره، وقد وتب الجن الأسود على صدره في الأسحار وله فحيح أسود لا يزيده إلا آهات وآلام وتوجع.

ولعل سيطرة اللون الأسود تدل على عمق الألم والحزن والظلام، وتعطي مؤشرا أوليا على طبيعة إدراك الشاعر لعالمه، فيربط السواد بالزمن، وهو «انعكاس للحالة النفسية التي يعيشها الإنسان، من خلال ربط الألفاظ بالزمن:

السنوات السوداء، الأيام السوداء، الليالي السوداء...، ويكون للون أثره في تشكيل النص، ويختلط الزمان بالمكان، ليخرج لنا دالا على هموم تكاد تحمل لونا مشابها لليالي السوداء.»¹⁸ يقول عبد الصبور:

عينان سوداوان

نضحتان بالجلال المر والأحزان

مرت عليهما تصاريف الزمان

فشالتنا من كل يوم أسود ظلا...¹⁹

تتوافق مفردات الشاعر كثيرا مع معنى الانهزامية والاستسلام، فالعينان على الرغم من سوادها تشيل من كل يوم أسود ظلا، لتزداد قتامة وسواد نتيجة الحزن المهيم عليها من تصاريف الزمان، والمعروف أن العين إذا أصابها الإعياء أو الحزن، فإنه يعلوها السواد ويحيط بها فتزداد سوادا ولو كانت سوداء.

وعليه فإن اللون الأسود عند عبد الصبور يعطي دلالات متنوعة يكشف عنها السياق، لأن السياق وحده هو الذي يحدد وظيفة اللون وفاعليته، فهو علامة دالة على الحزن والألم والسأم والضياع والحداد في بعض القصائد، وعلامة دالة على الإحساس بالمرارة والضيم والحقد والبغض في قصائد أخرى، ومساحة للأمل والتعويض النفسي في بعضها الآخر وإن قلت إذا ما قورنت بالنوعين الآخرين، وإذ لاحظنا السياقات التي جاء فيها اللون الأسود نجدها تعطي في أغلبها حقولا دلالية دالة على الانكسار والهزيمة في الواقع الذي يعيشه الشاعر بآلامه وأحزانه.

2- اللون الأبيض:

إن اللون الأبيض محبب إلى القلوب، لأنه يبعث على الأمل والتفاؤل، والصفاء والتسامح، ويدل على النقاء كما يبعث على الود والمحبة، وعلى الرغم من أن هذا اللون يحمل غالبا الدلالات الإيجابية، إلا أنه يحمل في الوقت نفسه معنى يقود إلى التشاؤم، ويرتبط ذلك التشاؤم بلون الشيب، كما في قوله تعالى: «واشتغل الرأس شييبا»²⁰ سورة مريم الآية 04.

ولقد ارتبط الشؤم بالبياض حينما ارتبط بلون الكفن وهو أبيض، وأنى كان ذلك فإن دلالة اللون الأبيض تختلف حسب السياق الشعري، كما تختلف هذه الدلالات من شاعر إلى آخر، ومن حدث إلى آخر، فالحالة النفسية تعطي دلالة مغايرة لاستخدام اللون، والفترة الزمانية تحدد أيضا استخداما مغايرا للون.²¹

ومن هنا فقد تباين توظيف صلاح عبد الصبور للون الأبيض من قصيدة إلى أخرى، إذ منح هذا اللون العديد من الدلالات، على أن الدلالة الغالبة هي معنى الصفاء والنقاء، كما في قوله في قصيدة "السلام":

وعلى محياه القسيم سماحة الحزن الصموت

والبسمة البيضاء تغمر فوق خديه محبه

لك، لي، لمن داسوه في درب الزحام

ألقى السلام...

وصفا محياه، وأغفت بين جفنيه غمامة

بيضاء شاحبة يطل بعمقها نجما سواد.

و النور، والسعداء، من حولي، وقافلة البيوت

لكنه ألقى السلام...²²

إن شبكة الصور المترابطة تراكبا جدليا (وعلى محياة القسيم/ سماحة الحزن الصموت/ البسمة البيضاء/ درب الزحام/ صفا محياه/ غمامة بيضاء شاحبة/ ألقى السلام...) تتماسك تماسكا سوريا، وتتفاعل تفاعلا سيميائيا لتنتج هذه الصورة اللونية (البسمة البيضاء) الدالة على الصفاء والتسامح، على الرغم من هذا الظلام والموت والحزن الذي يحيط بالشاعر وبقيدته.

ويتخذ اللون الأبيض دلالة الأمل والتفاؤل والنصر، وتحقيق ما هو منتظر؛ ولذلك كان البياض صفة للأفراح في زمن الحزن والتعاسة في مقطع من قصيدة "الحزن":

ورأيت عينيه تألقنا كمصباح قديم

ومضى يقول:

سنعيش رغم الحزن، نقهره، ونصنع في المصباح

أفراحنا البيضاء، أفراح الذين لهم صباح

ورنا إلي...

ولم تكن بشراه مما قد يصدقه الحزين

يا صاحبي!

زوق حديثك، كل شيء قد خلا من كل ذوق

أما أنا، فافقد عرفت نهاية الحذر العميق

الحزن يفترش الطريق...²³

مع القيد والألم يصبح الفرد عاجزا عن الكلام، إذ تموت المقدره على الكلام ويخلو كل شيء من الذوق والإحساس، ويعود الواقع المؤلم، وتتغير الأشياء ويفترش الحزن الطريق، تصبح الأفراح بيضاء للدلالة على نصر قريب ينتظره الذين لهم صباح وأمل في هذا الواقع.

ومن الطبيعي أن يكون اللون الأبيض لازما في صفات المرأة، فهو سمة الجمال فيها، والمرأة البيضاء معشوقة مطلوبة، وتزداد حلوة عن عبد الصبور إذا جمعت إلى البياض صفة الأميرة، كما في قوله:

وكان جانعا وظامنا، ممزق الثياب

ولم يكن لقلبه في الكون من أحباب

وفجأة لاحت له أميرة مؤتزره

بيضاء مثل لؤلؤ، وحلوة كسكرة

مدت ذراعي فضة تلقاه في تحنان.²⁴

إنها امرأة جميلة بيضاء، تلمع كما يلمع اللؤلؤ إذا خرج للشمس، وحلوة كالسكر تمنح العطف والدفء والحنان، إذا مدت ذراعيها الفضية، ومهما يكن فإن البياض سمة الأنوثة والجمال.

وبدل اللون الأبيض في قصائد عبد الصبور على الطهر والعفة، فقد «استخدم رمزا للطهر والبراءة»²⁵. وهي

الدلالة التي يقف عندها المتلقي لقصيدة "أغنية حب"، حين يقول في آخر مقطع منها:

سيدتي، إليك قلبي، واغفري لي، أبيض كاللؤلؤه

وطيب كاللؤلؤه

ولامع كاللؤلؤه

هدية الفقير

وقد ترينه يزين عشك الصغير...²⁶

يقدم الشاعر قلبه هدية لحبيبتة، ويصفه بأنه أبيض كاللؤلؤ، وقد وفر له هذه الدلالة على الطهر والبراءة مرادفات لفظية تحمل كل معاني العفة والطهر والصفاء والبراءة نحو: طيب، لامع، هدية فقير، وبخاصة هذه اللفظة الأخيرة التي تؤكد ذلك، لأن الفقير لا يملك شيئاً أعلى من قلبه الطاهر ليقدمه هدية لحبيبتة. والمعنى نفسه للون الأبيض يورده عبد الصبور في قصيدة "رسالة إلى صديقة" عندما يحكي لصديقتة حكاية الشيخ العجوز الذي مات في زمن الوباء، وكيف فاح من جسمه ريح طيب وطار نعشه، ثم إنه زاره بالأمس بلباس أبيض يكاد يخطف الأبصار من شدة صفائه، يقول:

بالأمس زارني، ووجهه السمين يستدير

... مثل دينار ذهب

ومقلناه حلوتان... جرتان من عسل

عميقتان بالسرور

بياض ثوبه يكاد يخطف الأبصار.²⁷

ويحمل البياض معنى الاستسلام، لأن للحوادث والنكبات وقعها على النفس ومما يزيد النفس ألماً هو عجزها عن فعل أي شيء، وحين يصبح الأحياء أموات لا حراك فيهم، يكون طريق الاستسلام مفتوحاً على فضاء الصورة اللونية للبياض، الذي يسهم في تكثيف الرؤية التشكيلية والدلالية في المعنى الشعري:

ويهبط السأم

يغسلهم من رأسهم إلى القدم

طهارة بيضاء تنبت القبور في مغاور الندم

تدفن فيها جثث الأفكار والأحزان، من

ترابها...²⁸

إن هذه الدلالات المختلفة للون الأبيض، والتي وظفها عبد الصبور في متنه الشعري تكشف عن اهتمامه النوعي باللون والصورة اللونية أيضاً، فهو يدل على الهناء والمحبة والود، وعلى الطهر والبراءة والحياء، وجاء دالاً على الجمال والحس، غير أنه تعدى هذه الدلالات الإيجابية إلى دلالة سلبية من خلال دلالاته على الاستسلام والخضوع.

3- اللون الأصفر:

يقترب اللون الأصفر من البياض، ويمثل الضوء ويرمز إلى الشمس، كما يرمز إلى الذهب، ومن ثم الشيء النفيس، ويعد اللون الأشقر مزيج من لونين الحمرة والبياض، أو يأخذ من الأحمر والأصفر،²⁹ وهذا النوع قليل الاستخدام لدى الشعراء لأنه يعتبر لدى الكثيرين هو الصفار، ومن ثم فإن اللون الأصفر هو الذي حظي بالنصيب الأوفر في مفردات وتركيب الشعراء، لما له من دلالات وإيحاءات.

ولقد ورد ذكر اللون الأصفر في القرآن الكريم أربع مرات، إحداها عن لون بقرة بني إسرائيل (البقرة 69)، والثلاث الأخرى في وصف لون النبات (المرسلات 33، الحديد 20، الروم 51)، وكان للون الأصفر في هذه السياقات المختلفة دلالات مختلفة أيضاً، إذ يعني التضحية كالبقرة الصفراء، ويعني الخداع، ويعني المرض ويعني الزيف، إلا أنه ينفرد بمهمة دلالية لا يبتعد عنها، وهي إنتاج الزيف والخداع.³⁰

ينفتح الشاعر صلاح عبد الصبور على فضاء العلاقة بين فن الرسم وفن الشعر في قصيدة "السلام"، ليحقق من هذه المزوجة التشكيلية رؤية جديدة لوظيفة اللون الأصفر الشعرية، التي تسعى إلى تشييد الصورة اللونية في قصيدته، حين يقول:

ألقى السلام...

وصفا محياه، وأغفت بين جفنيه غمامه

بيضاء شاحبة يطل بعمقها نجما سود.³¹

إن تحول الشاعر إلى رسام جعله ينهض بمهمة الاستحواذ على القيمة اللونية في المشهد الشعري (غمامة بيضاء شاحبة)، فقد دل الشحوب وهو لون المرض على البؤس والتعب والألم، أو إنه يعني الموت، لأن هذه الغمامة على بياضها لونت باللون الأصفر، وهو لون المرض والموت، وهذه الدلالة اللونية تتم عن الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان العربي، من انطواء وانهمام وإحباط.

ويرسم الشاعر صورة لونية إشكالية في قصيدته "أطلال"، تتطوي على فضاء جدلي قاس، ولذلك نجده يستعير الشمس ليعبر عن غياب الراحة والطمأنينة في كل شيء يحيط به، فهو يسعى وراء الشمس ولكنها وراء ظهره لا يراها في القريب الآتي:

أطلال... أطلال

هذي هي الأطلال

نهاية الآمال

أسعى وراء الشمس

والشمس في ظهري.³²

أمام الواقع المؤلم، جراء التشرذم والرحيل والهزيمة أصبح كل مكان أطلالا، وتغلغل الإحباط في كل شيء، حتى الآمال انتهت على النحو الذي تلتبس فيه الرؤية السيميائية للصورة، وتكشف عن موقف شعري متداخل في حساسيته الدلالية، وهو أن الصفرة التي تأخذ لون الشمس تكون غادرة مأكرة حين تخرج عن أصلها.

إن ثمة دلالات مغايرة لما أوردناه للون الأصفر في الخطاب الشعري لصلاح عبد الصبور، وما أفاده من معان توحى بالخوف والموت والمكر والحزن، وهي دلالات سلبية بلا شك، لنجد اللون الأصفر قد أورد في سياقات يعطي

دلالات إيجابية، فيأتي «دالا على الإرادة والمجد»³³، ويثير في نفس المتلقي قوة وأملا في زمن الانحسار، يقول الشاعر:

أواحدتي، في المساء الأخير
 ألوب إلى غرفتي
 ويزحم في نفسي انبهار غريب
 وانظر يا فتنتي للسماء
 ومن بابها الذهبي الضياء
 يضيء الدجى باتهمار النجوم
 ينور في وجنتيها السلام...
 وتصدح أجراسها بالفرح
 وأفرح يا فتنتي بالحياه
 بالأرض،
 بالملك،
 الملك لك.³⁴

إن المفردات الدالة على القوة والأمل والتجدد والسلام كثيرة في المقطوعة نحو (بابها الذهبي/ الضياء/ ينور/ السلام/ الفرح/ الحياة/ الأرض)، رغم وجود ألفاظٍ توحى باليأس (ألوب إلى غرفتي/ انبهار غريب)، وهذا الانبهار الغريب يحقق التعجب من شيء جميل، إذ جعل السماء ببابها الذهبي (الأصفر) تمنحنا الفرح والسلام والحياة والأرض. ومن ذلك أيضا ما جاء في قصيدته "سوناتا"، إذ جعل الذهب الأصفر من الثياب التي تلبسها صبيته، فتميز عن الأخرى، وهو بهذا يحمل دلالة للمعان والتميز والتفرد:

وكان سريرك من صندل وفرشته من حرير الشأم

وطوقت جيدك بالياسمين
 ومسحت كفيك بالعنبر
 وثوبك خيط من الموسلين
 وخيط من الذهب الأصفر
 ونرخی الستار، وفيروزتان
 تموجان في وجهك المستهام.³⁵

لقد وقع اللون الأصفر بدلالات مختلفة في سياقات شعرية مختلفة، ارتبطت في أغلبها بالحالة النفسية للشاعر، لذلك نجده يستعير الصفرة لكل شيء يحيط به أو يحلم به، فجد دلالة الانطواء والانحسار والإحباط، ودلالة الموت والانتهاك والمرض، ويدل على المكر والخديعة والزيف، ولكنه يتعداها في سياقات شعرية أخرى إلى المجد والأمل والسلام والتحرر، فيثير التحفز والتهيب والنشاط في المستقبل، كما يدل على الخير والتميز المرتبط بالخصب والوفرة وهو رمز الذهب ولونه.

خاتمة:

هكذا يطالعنا اللون في التجربة الشعرية لصالح عبد الصبور، ليكشف عن اهتمام نوعي باللون والصور اللونية لما لها من تأثير في حساسية التعبير الشعري للشاعر، فالألوان تتحرك دلالياً على مساحة القصائد لتعبر عن الرؤية الشعرية لصالح عبد الصبور من جهة، وتمتحن خيال المتلقي وقدرته على فك شفرات النص الشعري من جهة أخرى.

ثم إن سيميولوجيا الألوان التي رصدتها الدراسة، تعكس تصورا عميقا للحالة النفسية للشاعر، والتي اقتضرت على حضور ثلاثة ألوان أساسية، الأسود والأبيض والأصفر باختلاف دلالاتها، وكان لهذا الحضور مبرره حيث إن الشاعر يعالج قضايا سياسية واجتماعية ونفسية... وغيرها، لذلك ركز على هذه الألوان دون غيرها، وقد كان لها دلالات جمالية ونفسية ورمزية وسياسية، فأصبحت بذلك جزءا من قضايا النص الشعري وتقنياته، ومركزا أساسيا في بعض القصائد، مما أسهم في إخراج القصيدة بألوانها إلى لوحة فنية بصرية.

الإحالات والهوامش.

- 1- علي عشري زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة. مكتبة ابن سينا: القاهرة. ط4. 2002م. ص 20-21.
- 2- ظاهر محمد هراع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر "الشعر الأردني نموذجا". دار الحامد: عمان. ط1. 2008م. ص 13-18.
- 3- ابتسام مرهون الصفار: جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم. عالم الكتب الحديث: إربد- الأردن. ط1. 2010م. ص 69.
- 4- محمد حافظ ذياب: جماليات اللون في القصيدة العربية. مجلة فصول. المجلد الخامس. العدد الثاني. يناير. فبراير. مارس. 1985م. ص 47.
- 5- محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر. دار المعارف: القاهرة. ط3. 1984م. ص 135.
- 6- محمد حافظ ذياب: جماليات اللون في القصيدة العربية. ص 40.
- 7- محمد حسن عبد الله: المسرح المحكي "تأصيل نظري ونصوص من التراث العربي. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة. 2000م. ص 55.
- 8- أرسطو: فن الشعر. تر: شكري عياد. دار الكتاب العربي. 1967م. ص 64.
- 9- مجموعة مؤلفين: سيمياء الخطاب الشعري من التشكيل إلى التأويل "قراءات في قصائد من بلاد النرجس". دار مجدلاوي: عمان- الأردن. ط1. 2010م. ص 93.
- 10- المرجع نفسه. ص 96.
- 11- سعيد بن كراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها. دار الحوار: اللاذقية. ط2. 2005م. ص 113.
- 12- علي جعفر العلاق: الدلالة المرئية "قراءات في شعرية القصيدة الحديثة". دار الشروق: عمان. ط1. 2003م. ص 157-158.
- 13- مجموعة مؤلفين: سيمياء الخطاب الشعري من التشكيل إلى التأويل. ص 98-99.
- 14- ظاهر محمد هراع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر. ص 94.
- 15- صلاح عبد الصبور: الديوان. دار العودة: بيروت. 1998م. ص 7.
- 16- المصدر نفسه. ص 12-13.
- 17- المصدر نفسه. ص 14.
- 18- المصدر نفسه. ص 14.
- 19- ظاهر محمد هراع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر. ص 102.
- 20- صلاح عبد الصبور: الديوان. ص 200.

- 21- ظاهر محمد هراع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر. ص 78.
- 22- صلاح عبد الصبور: الديوان. ص 33-34.
- 23- المصدر نفسه. ص 39.
- 24- المصدر نفسه. ص 55.
- 25- أحمد مختار: اللغة واللون. عالم الكتب للنشر والتوزيع: القاهرة. ط2. 1997م. ص210.
- 26- صلاح عبد الصبور: الديوان. ص 69.
- 27- المصدر نفسه. ص 80.
- 28- المصدر نفسه. ص 149.
- 29- زين كامل الخويسكي: معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم. مكتبة لبنان. ط1. 1992م. ص 114.
- 30- ظاهر محمد هراع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر. ص 116.
- 31- صلاح عبد الصبور: الديوان. ص 33.
- 32- المصدر نفسه. ص 53.
- 33- محمد حافظ ذياب: جماليات اللون في القصيدة العربية. ص 42.
- 34- صلاح عبد الصبور: الديوان. ص 63.
- 35- المصدر نفسه. ص 42.